

٩ - قاعدة في أن الشريعة أمية، وأنه لا بد في فهمها من اتباع

معهود الأئمة، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم

قال الشاطبي في الموافقات: هذه الشريعة المباركة أمية، لأن أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح. ويدل على ذلك أمور.

أحدها: النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ»^(١). وقوله: «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ. الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ»^(٢). وفي الحديث: «بعثت إلى أمة أمية»^(٣)، لأنهم لم يكن لهم علم بعلوم الأقدمين. والأمر منسوب إلى الأم وهو الباقي على أصل ولادة الأم، لم يتعلم كتاباً ولا غيره. فهو على أصل خلقته التي ولد عليها، وفي الحديث: «نحن أمة أمية لا نحسب

(١) [٦٢/ الجمعة/ ٢] ونصها: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

(٢) [٧/ الأعراف/ ١٥٨] ونصها: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

(٣) جامع الترمذي في: ٤٣ - كتاب أبواب القراءات، ٩ - باب ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف.

عن أبي بن كعب قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: يا جبريل! إني بعثت إلى أمة أميين، منهم المعجوز والشيخ الكبير والسلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

ولا نكتب . الشهر هكذا وهكذا وهكذا»^(١) . وقد فسر معنى الأمية في الحديث : أى ليس لنا علم بالحساب ، ولا الكتاب ، ونحوه قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ »^(٢) . وما أشبه هذا من الأدلة الموثوقة في الكتاب والسنة ، الدالة على أن الشريعة موضوعة على وصف الأمية . لأن أهلها كذلك .

والثاني : أن الشريعة التي بعث بها النبي الأُمِّي إلى العرب خصوصا ، وإلى من سواهم عموما ، إيمان تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية ، أو لا . فإن كانت كذلك ، فهو معنى كونها أمية أى منسوبة إلى الأميين . وإن لم تكن كذلك ، لزم أن تكون على غير ما عهدوا . فلم تكن لتتنزل من أنفسهم منزلة ما تمهد ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها . فلا بد أن تكون على ما يمهدون . والعرب لم تمهد إلا ما وصفها الله به من الأمية ، فالشريعة إذا أمية .

والثالث : أنه لو لم يكن على ما يمهدون لم يكن عندهم معجزا ، ولو كانوا يخرجون عن مقتضى التمجيز بقولهم : هذا على غير ما عهدنا . إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام ، من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا ، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف . فلم تقم الحجة عليهم به . ولذلك قال سبحانه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ . . . »^(٣) فجعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا ،

(١) صحيح البخارى في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٨] ونصها : وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .

(٣) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَأَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا =

ولما قالوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ^(١) . ردَّ اللهُ عليهم بقوله : « لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ »^(١) . لكنهم أذعنوا لظهور الحجّة . فدل على أن
ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع المعجز عن مماثلته . وأدلة هذا المعنى كثيرة .



= فَصَلَّتْ آيَاتُهُ ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَسْكَانٍ بَعِيدٍ .
(١) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ،
لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

ثم قال الشاطبي :

فصل

واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق ، واتصاف بمحاسن شيم . فصححت التثريمة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه . وأبطلت ما هو باطل . وبينت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه . فمن علومها علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرف منازل سير النيرين وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة . كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »^(١) . وقوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »^(٢) . وقوله : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مِنْ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »^(٣) * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ . . . »^(٤) الآية . وقوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »^(٥) . وقوله : « وَجَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

(١) [٦ / الأنعام / ٩٧] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٦] ونصها : وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

(٣) [٣٦ / يس / ٤٠٣٩] ونصهما : وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مِنْ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٤) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . . » (١) الآية . وقوله :
« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » (٢) . وقوله :
« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . . » (٣) وما أشبه ذلك .

ومنها علوم الأنواء ، وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح الثيرة لها،
فبين الشرع حقها من باطلها ، فقال تعالى : « هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ
السَّحَابَ الثَّمَلِ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . » (٤) الآية . وقال : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ » (٥) . وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ
الْمُضِرَّاتِ مَاءً نَجَّاجًا » (٦) . وقال : « وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ » (٧) .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] ونصها: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ
اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فُضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السَّنِينَ
وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ نَفْصِيلًا .

(٢) [٦٧ / الملك / ٥] ونصها : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا
رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ
وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنَ اتَّقَى ، وَأَنْتُمْ
الْبُيُوتَ مِنْ أَسْوَاقِهَا ، فَمَقَّوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ .

(٤) [١٣ / الرعد / ١٢ و ١٣] ونصهما : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثَّمَلِ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ٦٨ و ٦٩] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ
أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ .

(٦) [٧٨ / النبأ / ١٤] ونصها : وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُضِرَّاتِ مَاءً نَجَّاجًا .

(٧) [٥٦ / الواقعة / ٨٢] ونصها : وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ .

خرج الترمذی^(١) : قال رسول الله ﷺ : وتعملون رزقكم أنكم تكذبون ، قال : شكركم . تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا . وفي الحديث^(٢) : أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر . . . الحديث . فى الأنواء .

وفى الموطأ مما انفرد به : إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة^(٣) . وقال عمر ابن الخطاب للعباس ، وهو على المنبر ، والناس تحته : كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال له العباس : بقى من نؤها كذا وكذا .

فمثل هذا مبين للحق من الباطل فى أمر الأنواء والأمطار . قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ . . . »^(٤) الآية . وقال : « الله

(١) جامع الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٦ - سورة الواقعة ، ٤ - حدثنا أحمد ابن منيع . عن على بن عيسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « وتعملون رزقكم أنكم تكذبون ، قال ، شكركم . تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا » .

(٢) صحيح البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٥٦ - باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم . عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت فى الليلة . فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر . فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب . وأما من قال : بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب .

(٣) الموطأ فى : ١٣ - كتاب الاستسقاء ، ٣ - باب الاستمطار بالنجوم ، ٥ - عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أنشأت بحرية ، ثم تشاءمت ، فتلك عين غديقة .

(٤) [١٥ / الحجر / ٢٢] ونصها : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .

الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» (١) إلى كثير من هذا .

ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية . وفي القرآن من ذلك ما هو كثير . وكذلك في السنة . ولكن القرآن احتفل في ذلك . وأكثره من الإخبار بالغيوب التي لم يكن للعرب بها علم ، لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون . قال تعالى : « ذَلِكِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَفْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ . . . » (٢) الآية . وقال تعالى : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا . . . » (٣) وفي الحديث (٤) قصة أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء البيت . وغير ذلك مما جرى .

(١) [٣٥ / فاطر / ٩] ونصها : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَلِكِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَفْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُخْتَصِمُونَ .

(٣) [١١ / هود / ٤٩] ونصها : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) صحيح البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٩ - باب يزفون ، النسلان في المشي .

عن ابن عباس في حديث طويل جداً . . . قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله : إني مطلع تركتي . فجاء فوافق إسماعيل وراء زمزم يصلح نبلا له . فقال : يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني له بيتاً . قال : أطع ربك . قال : إنه أمرني أن تعينني عليه . قال : إذن أفعل ، أوكما قال .

قال : فقاما فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . قال : حتى ارتفع البناء وضمف الشيخ على نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

العلوم التي كان العرب يمتنون بها . ومنها علم العيافة والزجر . ومنها علم الطب والبلاغة ٨٧

ومنها ما كان أكثره باطلاً أو جميعه : علم العيافة والزجر والسكّهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة ، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ، ونهت عنه . كالسكّهانة والزجر وخط الرمل . وأقرت الفأل . لا من جهة تطلب الغيب . فإن السكّهانة والزجر كذلك . وأكثر هذه الأمور تخرّص على علم الغيب من غير دليل . فجاء النبي ﷺ بوجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض وهو الوحي والإلهام . وأبقى للناس من ذلك ، بعد موته عليه السلام ، جزءاً من النبوءة وهو الرؤيا الصالحة ، وأمّوذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة .

ومنها علم الطب : فقد كان في العرب منه شيء ، لا على ما عند الأوثان ، بل مأخوذ من تجارب الأميين ، غير مبني على علوم الطبيعة التي يقررها الأقدمون . وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة ، ولكن على وجه جامع شاف قليل ، يطلع منه على كثير . فقال تعالى : « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . . » (١) . وجاء في الحديث التعريف ببعض الأدوية لبعض الأدوية ، وأبطل من ذلك ما هو باطل : كالتداوي بالخر والرق التي اشتملت على ما لا يجوز شرعاً .

ومنها التفنن في علم فنون البلاغة ، والخوض في وجوه الفصاحة ، والتصرف في أساليب الكلام ، وهو أعظم منتحلاتهم ، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم . قال تعالى : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (٢) .

(١) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] ونصها : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا .

ومنها ضرب الأمثال : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » (١) إلا ضرباً واحداً ، وهو الشعر ، فإن الله نفاه وبرأ الشريعة منه . قال تعالى في حكايته عن الكفار : « وَقَالُوا أَأُنبِئُكَ لَتَأْتِرْكُونَا أَهْتِنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ » (٢) ، أي لم يأت بشعر ، فإنه ليس بحق ، ولذلك قال : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ . . . » (٣) الآية . وبين معنى ذلك في قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » (٤) فظهر أن الشعر ليس مبنياً على أصل ، ولكنه هيمان على غير تحصيل ، وقول لا يصدقه فعل ، وهذا مضاد لما جاءت به الشريعة إلا ما استثنى الله تعالى . فهذا أتمودج ينهك على ما نحن بسبيله بالنسبة إلى علوم العرب الأمية . وأما ما يرجع إلى الانصاف بمكارم الأخلاق ، وما ينضاف إليها ، فهو أول ماخوطبوا به ، وأكثر ما تجدد ذلك في السور المكية من حيث كان آنس لهم ، وأجرى على ما يتمدح به عندهم ، كقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ . . . » (٥) إلى آخرها . وقوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ

(١) [٣٠ / الروم / ٥٨] ونصها : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ٣٦] ونصها : وَيَقُولُونَ أَأُنبِئُكَ لَتَأْتِرْكُونَا أَهْتِنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ .

(٣) [٣٦ / يس / ٦٩] ونصها : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ .

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤-٢٢٦] ونصها : وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

(٥) [١٦ / النحل / ٩٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا « (١) إلى انقضاء تلك الحاصل . وقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ » (٢) . وقوله : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » (٣) إلى غير ذلك من الآيات التي في هذا المعنى ، لكن أدرج فيها ما هو أولى ، من النهي عن الإشراك والتكذيب بأمور الآخرة ، وشبه ذلك مما هو المقصود الأعظم ، وأبطل لهم ما كانوا يعدونه كرمًا وأخلاقًا حسنة ، وليس كذلك . أو فيه من المفسد ما يربى على المصالح التي توهموها ، كما قال تعالى : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » (٤) ثم بين ما فيها من المفسد، خصوصاً في الخمر والميسر من إيقاع العداوة والبغضاء ، والصدّة عن ذكر الله وعن الصلاة . وهذا في الفساد أعظم مما ظنوه فيها صلاحاً . لأن الخمر كانت عندهم تشجع الجبان ، وتبثم البخيل على البذل ، وتنشط السكسالى . والميسر كذلك كان عندهم محموداً لما كانوا يقصدون به من

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَنُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَائَهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٣] ونصها : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٠] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إطعام الفقراء والمساكين ، والمطف على المحتاجين ، وقد قال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » (٥) .

والشريعة إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق ، ولهذا قال عايه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٦) . إلا أن مكارم الأخلاق على ضربين :

أحدهما : ما كان مألوفا وقريبا من المعقول المقبول ، كانوا في ابتداء الإسلام إنما خوطبوا به ثم لما رسخوا فيه . تم لهم ما بقي ، وهو :

الضرب الثاني : وكان منه ما لا يعقل معناه من أول وهلة فأخر حتى كان من آخره تحريم الربا وما أشبه ذلك ، وجميع ذلك راجع إلى مكارم الأخلاق . وهو الذي كان ممهودا عندهم على الجلة . ألا ترى أنه كان للعرب أحكام عندهم في الجاهلية أقرها الإسلام . كما قالوا في القراض ، وتقدير الدية وضربها على العاقلة ، وإلحاق الولد بالقافة ، والوقوف بالمشر الحرام ، والحكم في الخنثى ، وتوريث الولد ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، والقسامة ، وغير ذلك مما ذكره العلماء ؟ ثم نقول : لم يكف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون من سماء وأرض وجبال وسحاب ونبات ، وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك . ولما كان الباق عندهم من شرائع الأنبياء شيء من شريعة إبراهيم عليه السلام ، أبهم ، خوطبوا من تلك الجهة ودُعوا إليها ، وأن ماجاء به محمد ﷺ هي تلك بعينها كقوله تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا » (٣) وقوله : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْفَقْو ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

(٢) الموطأ في : ٤٧ - كتاب حسن الخلق ، ١ - باب ما جاء في حسن الخلق ، ٨ - عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : بعثت لأتمم حسن الأخلاق .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَمَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ =

يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ...» (١) الآية - غير أنهم غيروا جملة منها وزادوا واختلفوا . فجاء تقويمها من جهة محمد ﷺ . وأخبروا بما أنعم الله عليهم مما هو لديهم وبين أيديهم ، وأخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا ، لكن مبرأً من الغوائل والآفات التي تلازم التمتع الدنيوي . كقولهم : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ... » (٢) إلى آخر الآيات - وبين من ما كولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم . كالماء واللبن والتمر والعسل والتخيل والأعشاب وسائر ما هو عندهم مألوف ، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد المعجم . بل أجل ذلك في لفظ الفاكهة . وقال تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » (٣) فالقرآن كله حكمة ، وقد كانوا عارفين بالحكمة ، وكان فيهم حكماء ، فأنامهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله . وكان فيهم أهل وعظ وتذكير ، كقس بن ساعدة وغيره . ولم يجادلهم إلا على طريقة ما يعرفون من الجدل . ومن تأمل القرآن وتأمل كلام العرب في هذه الأمور الثلاثة وجد الأمر سواء . إلا ما اختص به كلام الله من الخواص المعروفة . وسر في جميع ملابسات العرب هذا السير تجد الأمر كما تقرر . وإذا ثبت هذا وضح أن الشريعة أمية لم تخرج عما ألفته العرب .

= مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَمَنْ مَوَّلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .
(١) [٣ / آل عمران / ٦٧] ونصها : مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٢٧-٣٠] ونصها : وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

ثم قال الشاطبي :

« المسألة الرابعة »

ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب، ينبني عليه قواعد :
 منها - أن كثيرا من الناس تجاوزوا ، على الدعوى في القرآن ، الحد . فأضافوا إليه كل
 علم يذكر للمتقدمين أو التأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع
 ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها . وهذا ، إذا عرضناه على ما تقدم ، لم يصح .
 وإلى هذا ، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن
 وبعلموه ، وما أودع فيه . ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى ، سوى
 ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلي ذلك . ولو كان لهم في
 ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما بدلنا على أصل المسألة . إلا أن ذلك لم يكن . فدل على أنه
 غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير شيء مما زعموا . نعم !
 تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب ، أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو
 الأبواب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتمام بأعلامه ، والاستنارة بنوره .
 أمّا أن فيه ما ليس من ذلك فلا ، وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »^(١) وقوله : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »^(٢) ونحو ذلك ،
 وبفواتح السور ، وهي مما لم يعهد عند العرب ، وبما نقل عن الناس فيها . وربما حكى من ذلك
 عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء .

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ
 أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ
 بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد. والمراد بالكتاب في قوله: « مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » اللوح المحفوظ ، ولم يذكرها فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية . وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهداً كمدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السير . أو هى من التشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ، ولم يده أحد ممن تقدم ، فلا دليل فيها على ما ادعوه . وما ينقل عن على أو غيره فى هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الافتصار ، فى الاستمانة على فهمه ، على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة . فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه ، والله أعلم وبه التوفيق .

ثم قال الشاطبي :

فصل

ومنها - أنه لابد في فهم الشريعة من اتباع مذهب الأئمة ، وهم العرب الذين نزل القرآن
بلسانهم . فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر ، فلا يصح المدول عنه في فهم الشريعة .
وإن لم يكن تمّ عرف ، فلا يصح أن يجري في فهمها ما لا تعرفه . وهذا جارٍ في المعاني
والألفاظ والأساليب . مثال ذلك : أن مذهب العرب أن لا ترى الألفاظ تمبداً عند محافظتها
على المعاني ، وإن كانت تراعيها أيضاً ، فليس أحد الأمرين عندها بملتزم ، بل قد تبني على
أحدها مرة ، وعلى الآخر أخرى ، ولا يكون ذلك قادحاً في صحة كلامها واستقامته . والدليل
على ذلك أشياء :

أحدها : خروجها في كثير من كلامها على أحكام القوانين المطردة ، والضوابط المستمرة ،
وجريانها في كثير من منشورها على طريق منظومها ، وإن لم يكن بها حاجة ، وتركها لما هو
أولى في مراميها . ولا يمد ذلك قليلاً في كلامها ، ولا ضعيفاً ، بل هو كثير قوى ، وإن كان
غيره أكثر منه .

والثاني : أن من شأنها الاستغناء ببعض الألفاظ عما يرادفها أو يقاربها ، ولا يمد ذلك
اختلافاً ولا اضطراباً إذا كان المعنى المقصود على استقامة . والكافي من ذلك نزول القرآن
على سبعة أحرف كما شاف كاف . وفي هذا المعنى من الأحاديث وكلام السلف العارفين
بالقرآن كثير . وقد استمر أهل القراءات على أن يعملوا بالروايات التي سحت عندهم ، مما وافق
المصحف ، وأنهم في ذلك قارئون للقرآن من غير شك ولا إشكال ، وإن كانت بين
القراءتين ما يمد الناظر بيادى الرأى اختلافاً في المعنى ، لأن معنى الكلام من أوله إلى آخره
على استقامة ، لا تفاوت فيه ، بحسب مقصود الخطاب : كالكلام وملك ، وما يمدعون
إلا أنفسهم وما يمدعون إلا أنفسهم . لنبوئهم من الجنة عرفاً لنبوئهم من الجنة عرفاً .

إلى كثير من هذا ، لأن جميع ذلك لا تفاوت فيه بحسب فهم ما أريد من الخطاب ، وهذا كان عادة العرب . ألا ترى ما حكى ابن جنّي عن عيسى بن عمر ، وحكى عن غيره أيضاً ، قال : سمعت ذا الرمة ينشد :

وظاهر لها من يابس الشخت واستمن عليها الصبا واجعل يديك لها سترًا

فقلت : أنشدتني : من يابس ، فقال : يابس وبأئس واحد . فأنت ترى ذا الرمة لم يعبأ بالاختلاف بين البوس واليبس ، لَمَّا كان موضع البيت قائماً على الوجهين ، وصواباً على كلتا الطريقتين . وقد قال في رواية أبي العباس الأحول : البوس واليبس واحد . يعني بحسب قصد الكلام ، لا بحسب تفسير اللغة . وعن أحمد بن يحيى ، قال : أنشدني ابن الأعرابي :

وموضع زير لا أريد مبيته كأنني به من شدة الروع آنس

فقال له شيخ من أصحابه : ليس هكذا ، أنشدتنا « وموضع ضيق » فقال : سبحان الله ! تصحبنا منذ كذا وكذا ، ولا تعلم أن الزير والضيق واحد . وقد جاءت أعمارهم على روايات مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، يعلم من مجموعها أنهم ما كانوا يلتزمون لفظاً واحداً على الخصوص ، بحيث يمد مرادفه أو مقاربه عيباً أو ضعفاً . إلا في مواضع مخصوصة لا يكون ما سواها من المواضع محمولاً عليها ، وإنما معهودها الغالب ما تقدم .

الثالث : أنها قد تهمل بعض أحكام اللفظ ، وإن كانت تعتبره على الجملة ، كما استقبلوا العطف على الضمير المرفوع المتصل مطلقاً ولم يفرقوا بين ما له لفظ ، وما ليس له لفظ ، فقبح « قت وزيد » ، كما قبح « قام وزيد » وجمعوا في الردف بين عمود و يومود ، من غير استكراه . وواو عمود أقوى في المد . وجمعوا بين سميد و عمود مع اختلافهما ، وأشبه ذلك من الأحكام اللطيفة التي تقتضيها الألفاظ في قياسها النظري ، لكنها تهملها وتوليها جانب الإعراض ، وما ذاك إلا لعدم تعمقها في تنقيح لسانها .

الرابع : أن الممدوح من كلام العرب ، عند أرباب العربية ، ما كان بعيداً عن تكلف الاصطناع . ولذلك ، إذا اشتغل الشاعر العربي بالتنقيح اختف في الأخذ عنه . فقد كان

الأصمى يعيب الخطيئة . واعتذر عن ذلك بأن قال : وجدت شعره كله جيداً ، فدلتني على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع . إنما الشاعر المطبوع الذي يرمى بالكلام على عواهنه ، جيده ورديه . وما قاله هو الباب المنتهج ، والطريق المهيض عند أهل اللسان . وعلى الجملة فالأدلة على هذا المعنى كثيرة ، ومن زاول كلام العرب وقف من هذا على علم . وإذا كان كذلك ، فلا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسمه لسان العرب ، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعنى العرب به ، والوقوف عند ما حدث .

ثم قال الشاطبي :

فصل

ومنها - أنه إنما يصح في مسلك الأفهام والفهم، ما يكون عاماً لجميع العرب ، فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه ، بحسب الألفاظ والمعاني . فإن الناس في الفهم وتأتي التكليف فيه ، ليسوا على وزن واحد ولا متقارب . إلا أنهم يتقاربون في الأمور الجمهورية وما والاها . وعلى ذلك جرت مصالحهم في الدنيا . ولم يكونوا بحيث يتعمقون في كل مهم ، ولا في أعمالهم إلا بمقدار ما لا يخل بمقاصدهم . اللهم إلا أن يقصدوا أمراً خاصاً ، لأناس خاصة . فذاك كالكنائيات الغامضة ، والرموز البعيدة التي تخفى عن الجمهور ، ولا تخفى عن قصد بها . وإلا كان خارجاً عن حكم مذهبها . فكذلك يلزم أن ينزل فهم الكتاب والسنة بحيث تكون معانيه مشتركة لجميع العرب ، ولذلك أنزل القرآن على سبعة أحرف ، واشتركت فيه اللغات ، حتى كانت قبائل العرب تفهمه . وأيضاً فتمتصاه من التكليف لا يخرج عن هذا النمط . لأن الضعيف ليس بالقوى ، ولا الصغير كالكبير ، ولا الأنثى كالذكر ، بل كل له حد ينتهي إليه في العبارة الجارية . فأخذوا بما يشترك الجمهور في القدرة عليه ، وألزموا ذلك من طريقهم بالحجة القائمة والوعظة الحسنة ، ونحو ذلك . ولو شاء الله لألزمهم ما لا يطيقون ، ولكفهم بغير قيام حجة ، ولا إثبات برهان ، ولا وعظ ولا تذكير ، ولطوَّقهم فهم ما لا يفهم ، وعلم ما لا يعلم ، فلا حجة عليه في ذلك ، فإن حجة الملك قائمة « قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » (١) لكن الله سبحانه خاطبهم من حيث عهدوا ، وكفهم من حيث لهم القدرة على ما به كفوا ، وَغَدَوْا فِي أُنْتَاءِ ذَلِكَ بِمَا يَسْتَقِيمُ بِهِ مَنَادُهُمْ ، وَيَقْوَى بِهِ ضَعْفُهُمْ ، وَتَنَهَضَ بِهِ عَزَائِمُهُمْ ، مِنَ الْوَعْدِ تَارَةً ، وَالْوَعِيدِ أُخْرَى ، وَالْوَعْظَةِ الْحَسَنَةِ أُخْرَى ، وَبَيَانَ مَجَارِي الْعَادَاتِ فِيمَنْ سَلَفَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] ونصها : قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ

أَجْمَعِينَ .

من الأمم الماضية، والقرون الخالية، إلى غير ذلك مما في معناه. حتى يعاموا أنهم لم ينفردوا بهذا الأمر دون الخلق الماضين، بل هم مشتركون في مقتضاه، ولا يكونون مشتركين إلا فيما لهم مُنَّة على تحمله. وزادهم تخفيفاً دون الأولين، وأجرى فوقهم فضلاً من الله ونعمة، والله عليهم حكيم. وقد خرَّج الترمذى، وصححه عن أبي بن كعب، قال^(١): لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: يا جبريل! إنى بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشبيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف. فالخاص أن الواجب فى هذا المقام إجراء الفهم فى الشريعة على وزن الاشتراك الجمهورى الذى يسمع الأميين، كما يسمع غيرهم.

(١) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٨٠.

ثم قال الشاطبي :

فصل

ومنها - أن يكون الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم ، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني ، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها . وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية . فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد ، والمعنى هو المقصود . ولا أيضاً كل المعاني . فإن المعنى الإفرادى قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوماً دونه . كما لم يعبأ ذو الرمة بيبأس ولا يابس ، إنكلاً منه على أن حاصل المعنى مفهوم . وأبين من هذا ما في جامع الإسماعيلي المخرج على صحيح البخاري عن أنس بن مالك ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ^(١) « فاكهة وأباً » قال : ما الأب ؟ ثم قال : ما كلفنا هذا . أو قال : ما أمرنا بهذا . وفيه أيضاً عن أنس أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن قوله^(١) : « فاكهة وأباً » ما الأب ؟ فقال عمر : نهينا عن التعمق والتكلف . ومن المشهور^(٢) تأديبه لضبيح

(١) جاء في تفسير ابن كثير ما يأتي :

وقال أبو عبيد أيضاً : عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأباً) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا هو التكلف يا عمر .

وقال محمد بن سعد : ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفي ظهر قبيصه أربع رقاع . فقرأ (وفاكهة وأباً) فقال : فما الأب ؟ ثم قال : هو التكلف ، فما عليك أن لا تدريه ؟

(٢) جاء في مسند الدارمي ، بالباب الثاني عشر من المقدمة - باب كراهية الفتيا - ما يأتي :

أخبرنا أبو النعمان ، ثنا حماد بن زيد ، ثنا يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن . فأرسل إليه عمر ، وقد أعد له =

حين كان يكثر السؤال عن الرسائل والماصفات ونحوها . وظاهر من هذا كله أنه إنما نهى عنه لأن المعنى التركيبيّ معلوم على الجملة، ولا ينبغي على فهم هذه الأشياء حكم تكليفيّ، فرأى أن الاشتغال به عن غيره، مما هو أهم منه، تكلف . ولهذا أصل في الشريعة صحيح، نبه عليه قوله تعالى: « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . » (١) إلى آخر الآية . فلو كان فهم اللفظ الإفرادي يتوقف عليه فهم التركيبي لم يكن تكلفاً، بل هو

= عراجين النخل . فقال: من أنت؟ قال: عبد الله صبيغ . فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه، وقال: أنا عبد الله عمر . فجعل له ضرباً حتى دمي رأسه . فقال: يا أمير المؤمنين! حسبك . قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي .

وفيه أيضاً: أخبرنا عبد الله بن صالح . حدثني الليث . أخبرني ابن مجلان عن نافع مولى عبدالله أن صبيغاً العراقيّ جمل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر . فبعث به عمرو بن الماص إلى عمر بن الخطاب . فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرّحل . فقال عمر: أبصر! أن يكون ذهب فتصيبك مني به العقوبة الموجهة . فأتاه فقال عمر: تسأل محدثة؟ فأرسل إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة . ثم تركه حتى برأ . ثم عاد له . ثم تركه حتى برأ . فدعا به ليعود له قال فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني، فقد، والله، برأت . فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعريّ أن لا يجالسه أحد من المسلمين . فاشتد ذلك على الرجل . فكتب أبو موسى إلى عمر أنه قد حسنت توبته . فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٧] ونصها: لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

وأن يكون الاعتناء بالمعاني المبهوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم ١٠١

مضطر إليه . كما روى عن عمر نفسه في قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » (١) فإنه سأل عنه على المنبر . فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص . ثم أنشده :
تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكًا قَرْدًا كَا تَخَوُّفَ عُودِ النَّبَعَةِ السَّقْنِ (٢)
فقال عمر : أيها الناس! تمسكوا بديوان شعركم في جاهلييتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم .
فليس بين الخبرين تعارض . لأن هذا توقف فهم معنى الآية عليه ، بخلاف الأول . فإذا كان الأمر هكذا فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب ، لأنه المقصود والمراد . وعليه ينبى الخطاب ابتداءً . وكثيراً ما يُغفل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة ، فتلتبس غرائب ومعانيه على غير الوجه الذى ينبى ، فتستبهم على الملتبس ، وتستهجم على من لم يفهم مقاصد العرب ، فيكون عمله في غير معمل ، ومشبه على غير طريق . والله الواقى برحمته .

(١) [١٦ / النحل / ٤٧] ونصها : أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنْ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) جاء في الأملى ، ج ٢ ص ١١٢ ما يأتى :
قال أبو على : التامك : المرتفع من السنام . والقردُ : التلبد بمضنه على بعض . والسقنُ : المربرد .

وقال شارح شواهد الكشاف : يصف ناقة أثر الرحل في سنامها وتنقص منها كما ينقص السفن من العود .

فصل

في أن بيان الصحابة حجة إذا أجمعوا

قال الشاطبي في الموافقات : بيان رسول الله ﷺ بيان صحيح لا إشكال في صحته . لأنه لذلك بعث . قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (١) ولا خلاف فيه . وأما بيان الصحابة ، فإن أجمعوا على ما بينوه ، فلا إشكال في صحته أيضاً . كما أجمعوا على النسل من التقاء الختانين المبين لقوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا » (٢) وإن لم يجمعوا عليه ، فهل يكون بيانهم حجة أم لا ؟ هذا فيه نظر وتفصيل ، ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان من وجهين :

أحدها : معرفتهم باللسان العربي ، فإنهم عرب فصحاء ، لم تغير ألسنتهم ، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم ، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم ، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان ، صح اعتماده من هذه الجهة .

والثاني : مباشرتهم للوقائع والنوازل ، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة ، فهم أقمد في فهم القرائن الحالية ، وأعرف بأسباب التنزيل ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك . والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات ، أو تخصيص بعض العمومات ، فالعمل عليه صواب .

هذا ، إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة . فإن خالف بعضهم ، فالسألة اجتهادية .

(١) [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . . .

مثاله قوله عليه السلام : لا يزال الناس بخير ما عجّلوا الفطر^(١) ، فهذا التمجيل يحتمل أن يقصد به إيقاعه قبل الصلاة ، ويحتمل أن لا . فكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يصليان المغرب قبل أن يفطرا . ثم يفطران بعد الصلاة ، بيانا أن هذا التمجيل لا يلزم أن يكون قبل الصلاة ، بل إذا كان بعد الصلاة فهو تمجيل أيضاً ، وأن التأخير الذي يفعله أهل المشرق شيء آخر ، داخل في التعمق المنهى عنه ، وكذلك ذكر عن اليهود أنهم يؤخرون الإفطار فندب المسلمون إلى التمجيل . وكذلك قال عليه السلام : لاتصوموا حتى تروا الهلال ، ولا تفطروا حتى تروه^(٢) ، احتمل أن تكون الرؤية مقيدة بالأكثر ، وهو أن يرى بعد غروب الشمس . فبين عثمان أن ذلك غير لازم ، فرأى الهلال في خلافته قبل الغروب ، فلم يفطر حتى أمسى وغابت الشمس .

وتأمل . فعادة مالك بن أنس في موطنه وغيره الإتيان بالآثار عن الصحابة . مبيناً بها السنن ، وما يعمل به منها ، وما لا يعمل به . وما يقيد به مطلقاتها : وهو دأبه ومذهبه لما تقدم ذكره .

ومما بين كلامهم اللغة أيضاً . كما نقل مالك في دلوك الشمس وغسق الليل كلام ابن عمر وابن عباس ، وفي معنى السمعى عن عمر بن الخطاب أعنى قوله تعالى : « فأسأوا إلى ذكركم الله

(١) سنن أبي داود في : ١٤ - كتاب الصوم ، ٢٠ - باب ما يستحب من تمجيل الفطر ح ٣٥٣ ، ونصه :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يزال الدين ظاهرا ما عجّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرونه » .

(٢) صحيح البخارى في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١١ - باب قول النبي ﷺ إذا رأيتم الهلال ... الخ ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال « لاتصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه . فإن غم عليكم فاقدروا له » .

وَذَرُّوا الْبَيْعَ»^(١) . وفي معنى الأخوة أن السنة قضت أن الأخوة اثنان فصاعدا . كما تبين بكلامهم معنى الكتاب والسنة .

لا يقال: إن هذا المذهب راجع إلى تقليد الصحابي ، وقد عرفت ما فيه من النزاع والخلاف . لأننا نقول: نعم . هو تقليد ، ولكنه راجع إلى ما لا يمكن الاجتهاد فيه على وجهه ، إلاً لهم ، لما تقدم من أنهم عرب ، وفرق بين من هو عربي الأصل والنحلة وبين من تمرّب : (غلب التطبع شيمة المطبوع) وأنهم شاهدوا من أسباب التكليف وقرائن أحوالها ما لم يشاهد من بعدهم . ونقل قرائن الأحوال على ما هو عليه كالتعذر ، فلا بد من القول بأن فهمهم في الشريعة أتم وأحرى بالتقديم . فإذا جاء في القرآن أو في السنة من بيانهم ما هو موضوع موضع التفسير ، بحيث لو فرضنا عدمه ، لم يمكن تنزيل النص عليه على وجهه ، انحتم الحكم بإعمال ذلك البيان ، لما ذكر ، ولما جاء في السنة من اتباعهم والجريان على سنهم . كما جاء في قوله عليه السلام : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ^(٢) ، وغير ذلك من الأحاديث فإنها عاضدة بهذا المعنى في الجملة . أما

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُّوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) سنن أبي داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ٥ - باب في لزوم السنة ، ح ٤٦٠٧

ونصه :

عن العرياض : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم . ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال قائل : يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودّع ، فإذا تمهد إلينا ؟ فقال « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً . فإنه من يمش منكم بمدي فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

إذا علم أن الموضع موضع اجتهاد لا يقتدر إلى ذينك الأمرين فهُمْ وَمَنْ سواهم فيه شرع ، سواء . كمسألة المَوَلِّ والوضوء من النوم ، وكثير من مسائل الربا التي قال فيها عمر بن الخطاب : مات رسول الله ﷺ ولم يبين لنا آية الربا . فدعوا الربا والريبة . أو كما قال .

فمثل هذه المسائل موضع اجتهاد للجميع ، لا يختص به الصحابة دون غيرهم من المجتهدين . وفيه خلاف بين العلماء أيضاً . فإن منهم من يجعل قول الصحابيِّ ورأيه حجة يرجع إليها ويمعمل عليها من غير نظر ، كالأحاديث والاجتهادات النبوية . وهو مذكور في كتب الأصول . فلا يحتاج إلى ذكره ههنا .



فصل

في أن كل حكاية في القرآن لم يقع لها رد فهي صحيحة

قال الشاطبي: كل حكاية وقعت في القرآن ، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ، وهو الأكثر ، ردّها أو لا ، فإن وقع رد فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه . وإن لم يقع معها رد ، فذلك دليل على صحة المحكي وصدقه .

أما الأول فظاهر ولا يحتاج إلى برهان . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ »^(١) فأعقب بقوله: « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ... »^(١) الآية . وقال: « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ... »^(٢) الآية ، فوقع التنكيت على افتراء مازعموا بقوله: « بَرِّعْمِهِمْ » وبقوله: « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »^(٢) وقالوا « هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ »^(٣) إلى عامه . ورد بقوله: « سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »^(٣)

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِينَ تُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٦] ونصها : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِئْسِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٣٨] ونصها : وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَرِّعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْرَوْنَ .

ثم قال : « وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ . . . » (١) الآية ، فنبه على فساده بقوله : « سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ » (١) زيادة على ذلك . وقال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءآخَرُونَ » (٢) فرد عليهم بقوله : « فَقَدُوا جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا » (٣) ثم قال : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . . . » (٣) الآية . فرد بقوله : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ . . . » (٣) الآية . ثم قال : « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا » (٤) ثم قال تعالى : « انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا » (٥) وقال تعالى : « وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْمَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » (٦)

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٤] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءآخَرُونَ ، فَقَدُوا جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٥٥] ونصهما : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٨] ونصها : أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوَنُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا .

(٥) [٢٥ / الفرقان / ٩] ونصها : انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

(٦) [٣٨ / ص / ٤ - ٨] ونصها : وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْمَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ ءعْجَابٌ * وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُوا عَلٰى ءِلٰهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * =

إلى قوله: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا» ثم رد عليهم بقوله: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي» إلى آخر ما هنالك. وقال: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا»^(١) ثم رد عليهم بأوجه كثيرة ثبتت في أثناء القرآن كقوله: «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ»^(٢) وقوله: «بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٣) وقوله: «سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ...»^(٤) الآية، وقوله: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ»^(٥) إلى آخره وأشبه ذلك.

ومن قرأ القرآن وأحضره في ذهنه عرف هذا بيسر.

وأما الثاني - فظاهر أيضاً. ولكن الدليل على صحته من نفس الحكاية وإقرارها، فإن القرآن سمي فرقاناً وهدى وبرهاناً وبياناً لكل شيء، وهو حجة الله على الخلق، على الجملة والتفصيل، والإطلاق والعموم. وهذا المعنى يأتى أن يحكى فيه ما ليس بحق، ثم لا يثبت عليه.

= مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ .

(١) [٢ / البقرة / ١١٦] ونصها: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلُّ لَه قَانِتُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٦] نصها: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ .

(٣) [١٠ / يونس / ٦٨] ونصها: قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٤) [١٩ / مريم / ٨٨ - ٩٥] ونصها: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا .

وأيضاً فإن جميع ما يحكى فيه من شرائع الأولين وأحكامهم ولم ينبه على إفسادهم وافتراءهم فيه ، فهو حق يجمل عمدة ، عند طائفة ، في شريعتنا . ويمنعهم قوم ، لا من جهة قبح فيه ، ولكن من جهة أمر خارج عن ذلك . فقد انفقوا على أنه حق وصدق كشريعتنا . ولا يفترق ما بينهما إلا بحكم النسخ فقط ، ولو نبه على أمر فيه لكان في حكم التنبيه على الأول ، كقوله تعالى : « وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ... » (١) الآية ، وقوله : « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ... » (٢) الآية ، وكذلك قوله تعالى : « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْتَ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّئًا بِالسِّنْتِهِمْ وَظَعْنًا فِي الدِّينِ » (٣) فصار هذا من النمط الأول .

ومن أمثلة هذا القسم جميع ما حكى عن المتقدمين من الأمم السالفة مما كان حقاً . كحكايته عن الأنبياء والأولياء . ومنه قصة ذى القرنين ، وقصة الخضر مع موسى عليه السلام ، وقصة أصحاب الكهف . وأشبه ذلك .

(١) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤١] ونصها : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذَرُوا ، وَمَنْ بُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٤ / النساء / ٤٦] ونصها : مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْتَ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّئًا بِالسِّنْتِهِمْ وَظَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْتَ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمَنَّهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

ثم قال الشاطبي :

فصل

وَلَا طَّرَادَ هَذَا الْأَصْلَ اعْتَمَدَهُ النَّظَارُ . فَقَدْ اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَصُولِيِّينَ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ مَخَاطِبُونَ بِالْفُرُوعِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ... » (١) الآية ، إذ لو كان قولهم باطلاً لَرُدُّ عِنْدَ حِكَايَتِهِ . وَاسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كُلُّهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَحْكِي مِنْ قَوْلِهِمْ إِثْمَهُمْ ثَلَاثَةَ رَابِعِهِمْ كُلُّهُمْ وَإِثْمَهُمْ خَمْسَةَ سَادِسِهِمْ كُلُّهُمْ ، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « رَجَمًا بِالْغَيْبِ » (٢) ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ وَلَا عِلْمٌ غَيْرُ اتِّبَاعِ الظَّنِّ . وَرَجَمَ الظَّنُّونَ لِأَنَّ مَعْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ؛ وَلَمْ يَحْكِي قَوْلَهُمْ سَبْعَةَ وَثَامَنُهُمْ كُلُّهُمْ لَمْ يَتَّبِعَهُمْ بِإِطَالٍ ، بَلْ قَالَ : « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » (٣) دَلَّ الْمَسَاقُ عَلَى صِحَّتِهِ دُونَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَنَا مِنْ ذَلِكَ الْقَلِيلِ الَّذِي يَعْلَمُهُمْ . وَرَأَيْتُ مَنْقُولًا عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّبُ الْمُؤْتَى » (٤) فَقِيلَ لَهُ : أَمَا كَانَ شَاكِرًا حِينَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَرِيهِ آيَةً ؟ فَقَالَ : لَا ، وَإِنَّمَا كَانَ يَطْلُبُ زِيَادَةَ إِيمَانٍ إِلَى إِيمَانِهِ . أَلَا تَرَاهُ قَالَ : « أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى » (٥)

(١) [٧٤ / المذثر / ٤٤ و ٤٣] وَنَصَبَهُمَا : قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٢] وَنَصَبَهَا : سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَابِعَهُمْ كُلُّهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَادِسَهُمْ كُلُّهُمْ رَجَمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَامَنَهُمْ كُلُّهُمْ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تَمَارٍ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٦٠] وَنَصَبَهَا : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّبُ الْمُؤْتَى ، قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَىٰ نِكَاحِمْ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنِكَ سَمْعِيَا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فلو علم منه شكاً لأظهر ذلك . فصحح أن الطمأنينة كانت على معنى الزيادة في الإيمان . بخلاف ما حكى الله عن قوم من الأعراب في قوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا » (١) فإن الله تعالى رد عليهم بقوله : « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » (١) .

ومن تتبع مجازى الحكايات في القرآن ، عرف مداخلمها وما هو منها حق مما هو باطل . فقد قال تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ » (٢) إلى آخرها ، فإن هذه الحكاية ممزوجة الحق بالباطل ، فظاهرها حق وباطنها كذب ، من حيث كان إخباراً عن المعتد ، وهو غير مطابق ، فقال تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ » (٢) تصحيحاً لظاهر القول . وقال : « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » إبطالاً لما قصدوا فيه . وقال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) الآية ، وسبب نزولها ما خرجه الترمذی ، وصححه عن ابن عباس ، قال (٤) : مر يهودى

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] ونصها : قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ١] ونصها : إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٤) جامع الترمذی عن ابن عباس في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٩ - سورة الزمر ،

٤ - حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ...

والرواية الأخرى أخرجهما البخارى في صحيحه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١٩ - باب

قول الله تعالى لما خلقت بيدي ، عن عبد الله بن مسعود .

بالنبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : حدثنا يا يهودي ! فقال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه (وأشار الراوي بمخضره أولاً ثم تابع حتى بلغ الإبهام) فأنزل الله « وما قدروا الله حق قدره » . وفي رواية أخرى : جاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه . قال : « وما قدروا الله حق قدره » . وفي رواية فضحك النبي ﷺ تعجباً وتصديقاً . والحديث الأول كأنه مفسر لهذا ، وبمعناه يتبين معنى قوله : « وما قدروا الله حق قدره » فإن الآية بينت أن كلام اليهودي حق في الجملة ، وذلك قوله : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وأشارت إلى أنه لم يتأدب مع الربوبية وذلك - والله أعلم - لأنه أشار إلى معنى الأصابع بأصابع نفسه ، وذلك مخالف للتنزيه للباري سبحانه ، فقال : « وما قدروا الله حق قدره » .

وقال تعالى : « وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ »^(١) أى يسمع الحق والباطل، فرد الله عليهم فيما هو باطل وأحق الحق، فقال : « قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ »^(١) الآية ، ولما قصدوا الأذية بذلك الكلام قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »^(١) . وقال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ »^(٢) فهذا منهم امتناع عن الإنفاق بحجة، قصدهم فيها الاستهزاء ، فرد عليهم بقوله : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »^(٢)

(١) [٩ / التوبة / ٦١] ونصها : وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٢) [٣٦ / يس / ٤٧] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

لأن ذلك حَيَّد عن امتثال الأمر . وجواب « أنفقوا » أن يقال: « نم أو لا » وهو الامتثال أو العصيان . فلما رجعوا إلى الاحتجاج على الامتناع بالمشيئة المطلقة التي لا تمارض ، انقلب عليهم من حيث لم يعرفوا . إذ حاصلهم أنهم اعترضوا على المشيئة المطلقة بالمشيئة المطلقة ، لأن الله شاء أن يكلفهم الإنفاق ، فكأنهم قالوا : كيف يشاء الطلب منا ، ولو شاء أن يطعمهم لأطعمهم ، وهذا عين الضلال في نفس الحجة . وقال تعالى : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ »^(١) إلى قوله : « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » فقوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ »^(١) تقرير لإصابته عايه السلام - في ذلك ، الحكم - ، وإيماء إلى خلاف ذلك في داود عليه السلام ، لكن لما كان المجتهد معذوراً مأجوراً بمد بذله الوسع ، قال : « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا »^(١) وهذا من البيان الخفيّ فيما نحن فيه .

قال الحسن : والله ! لولا ما ذكر الله من أمر هذين الرجلين لرأيت أن القضاة قد هلكوا . فإنه أثني على هذا بلمه ، وعذر هذا باجتهاده . والنمط هنا يتسع ، ويكفي منه ما ذكر ، وبالله التوفيق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧٨ و٧٩] ونصهما: وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ، وإنما هي عبرة للناس . كما قال تعالى في سورة هود ، بعدما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم : « وَكَأَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ .. » (١) الخ ، ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا تستقصى فيذكر منها الظم والرم ، ويؤتى فيها بالجرّة وأذن الجرّة ، كما في بعض الكتب ، التي تسميها الملل الأخرى مقدسة . وللمبرة وجوه كثيرة . وفي تلك القصص فوائد عظيمة ، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية . وقد نبه الله تعالى على ذلك في مواضع من كتابه كقوله : « وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » (٢) . وقوله : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » (٣) . يذكر أمثال هذا بعد بيان أحوال الأمم في غمط الحق والإعراض عنه ، والفرور بما أوتوا ، ونحو ذلك . فالآية الأولى جاءت في سياق الكلام عن المرضين عن الحق لا يلوون عليه ولا ينظرون في أدلته لانهما كهم في تفهم وسرفهم ، وجودهم على عاداتهم وتقاليدهم . والآية الثانية : جاءت في سياق حاجة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء ، وبمعد الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار في الأرض ، وكيف هلكوا بعدما دعوا إلى الحق والتهديب فلم يستجيبوا ، لما صرفهم من الفرور بما كانوا فيه ، ولم يتفهمهم إيمانهم عند ما نزل بهم بأس الله وحلّ بهم عذاب التفريط والاسترسال في الكفر وآثاره السوءى . وليس المراد ، بنفي كون قصص القرآن تاريخاً ، أن التاريخ شيء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه . كلا . إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف يتفهمون بالتاريخ .

(١) [١١ / هود / ١٢٠] ونصها : وَكَأَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ١٣] ونصها : لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] ونصها : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ

اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

فمثل ما في القرآن من التاريخ البشرى كمثل ما فيه من التاريخ الطبيعي من أحوال الحيوان والنبات والجماد ، ومثل ما فيه من الكلام في الفلك . يراد بذلك كله التوجيه إلى العبرة والاستدلال على قدرة الصانع وحكمته ؛ لا تفصيل مسائل العلوم الطبيعية والفلكية التي مكن الله البشر من الوقوف عليها بالبحث والنظر والتجربة ، وهدأهم إلى ذلك بالفطرة وبالوحي معاً .

